جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 40 / حزيران 2024

دراسة منهج محمد تقي الحائري في كتابه خلاصه البيان في حل مشكلات القران ـعرض وتحليل

A study of the approach of Muhammad Taqi Al-Hairi in his book Khulasat al-Bayan fi Solving the Problems of the Qur'an Presentation and Analysis

نور الهدى بهاء صاحب الغزالي
Noor Al-Huda Baha Sahib Al-Ghazal
أ.د ناهدة جليل عبد الحسن الغالبي
Prof. Dr. Nahida Jalil Abdul Hassan Al-Ghalbi

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: تفسير القران بالقران، التعريف اصطلاحًا، انواعه، اصحاب المنهج.

Keywords: interpretation of the Qur'an by the Qur'an, definition idiomatically, its types, methodology wners.

الملخص:

يتناول هذا البحث المواد والمناهج المتبعة في تفسير الخلاصة وله تفسير اتبع منهج تفسير القرآن بالقرآن وهو من أقدم المناهج التفسيرية للقرآن، وهو فرع أصل من المنهج النقلي؛ لأنّ الطريقة النقلية تنقسم على قسمين: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالرواية، وقد رجح أرباب التفسير وأولي الاختصاص هذا المنهج في التفسير، واستفادوا منها في كثيرٍ من الموارد، بل أنّ بعضهم عدّها من أفضل المناهج التفسيرية وقال كثيرون في مثاليتها في رصانة الآلية التفسيرية.

Abstract:

This research deals with the materials and methods used in the interpretation of the summary. The method of interpretation of the Qur'an by the Qur'an is considered one of the oldest exegetical approaches to the Qur'an, and it is an original branch of the initial version. The concept of the traditional method is divided into two parts: the interpretation of the Qur'an by the Qur'an, and the interpretation of the Qur'an by narration. The great masters of interpretation and the first did not find this application in the interpretation, and they benefited from it in many ways.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي ركنت إليه قلوب العارفين، وحطّت بساحاته آمال العابدين، وعنت لهيبته أنوف المتعالين وارتشفت من جوده أفواه المحتاجين، وغاصت في حبّه نفوس الوالهين، وعزفت عمَّن سواه عقول المتقين، وضمنت عنده إجابة السائلين ورمقت رحمته عيون الخاطئين، وسكنت بقربه أجفان المتعبدين.

فان هذا المبحث تم عرض الموارد والمناهج المتبعة في تفسير الخلاصة، فاستفتح الفصل بتوطئة موجزة توضح أهمية تفسير القرآن بالقرآن مع ذكر التأصيل التاريخي لهذا المنهج باعتباره منهجاً فرع تفرع من الطرق النقلية والروائية، فاقتضى الأمر تقسيم المبحث الأول إلى أربعة مطالب مهمة تشمل تعريف منهج تفسير القرآن بالقرآن مع ذكر أنواعه، وكشف من انساقوا وراء هذا المنهج من المفسرين الإمامية، وانتهى المبحث بعرض المبحث نماذج تطبيقية من تفسير الخلاصة.

ومن هنا نعرف جيداً مدى ضرورة المعرفة المطلقة لهذا المنهج بغية الوصول إلى صورة واضحة وجلية لمنهج اعتمده الحائري كثيراً في تفسير الخلاصة، فكان لابد من شرح تفصيلي يبين الجوانب التاريخية لأصالة هذا المنهج وآلية اعتماده وكيفية تطويره فضلاً عن تاريخ التطوير خصوصاً وان هذا الفن لاقى رواجاً في المناهج التفسيرية المتأخرة.

توطئة

يعد منهج تفسير القرآن بالقرآن من أقدم المناهج التفسيرية للقرآن، وهو فرع أصل من المنهج النقلي؛ لأنّ الطريقة النقلية تنقسم على قسمين: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالرواية.

وقد رجّح أرباب التفسير وأولي الاختصاص هذا المنهج في التفسير، واستفادوا منها في كثيرٍ من الموارد، بل أنّ بعضهم[1] عدّها من أفضل المناهج التفسيرية وقال الكثير في مثاليتها في رصانة الآلية التفسيرية. وتظهر أهمية هذا المنهج إذا علمنا بأن التفسير الموضوعي غير ممكن بدون الاعتماد على تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك لا يمكن الاستغناء عن مشربه الروي في التفسير الترتيبي؛ لإنّ هذا يعني صرف النظر عن القرائن النقلية والوقوع في التفسير بالرأي.[2]

ومن هنا نعرف جيداً مدى ضرورة المعرفة المطلقة لهذا المنهج بغية الوصول إلى صورة واضحة وجلية لمنهج اعتمده الحائري كثيراً في تفسير الخلاصة، فكان لابدّ من شرح تفصيلي يبين الجوانب التاريخية لأصالة هذا المنهج وآلية اعتماده وكيفية تطويره وكذلك عن تاريخ التطوير ولا سيما أن هذا الفن لاقى رواجاً في المناهج التفسيرية المتأخرة.

المبحث الاول تفسير القرآن بالقرآن:

تتابع أهل العلم على استعمال هذه الطريقة من طرائق التفسير والإشارة إليه سواء في كتب التفسير أو كتب علوم القرآن، بل وفي بعض كتب أصول الفقه، لكنهم اكتفوا باستعماله وببيان صحته، وذكر بعض أنواعه، والتمثيل له، دون وضع تعريف أو حد له، ولعل السبب في ذلك – والله أعلم – يعود إلى أمرين:

الأوّل: الاكتفاء بالتمثيل عن التعريف، وكما قيل بالمثال يتضح المقال.

الثاني: ارتباطه بمصطلح التفسير، ووجه هذا الارتباط أن تفسير القرآن بالقرآن نوع من أنواع التفسير، وجزء منه، فاكتفوا بتعريف الكل عن تعريف الجزء، فمتى تبين مصطلح التفسير واتضح يتبين معنى تفسير القرآن بالقرآن، وذلك عن طريق تقييده بهذا النوع من التفسير؛ ليخرج بقية: أنواع التفسير ومصادره كتفسير القرآن بالسنة، وتفسيره بأقوال السلف، وتفسيره بما ورد عن العرب.[3]

أولاً: المعنى الاصطلاحي لتفسير القرآن بالقرآن:

القرآن بالقرآن الباء في (تفسير القرآن بالقرآن) إمّا باء الاستعانة أو السببية [4]؛ أي توضيح آيات القرآن بواسطة آيات أُخرى وبيان مقصودها.

وبعبارة أُخرى: تكون آيات القرآن بمثابة المصدر لتفسير آيات أخرى. وقد عرّف بعض المتخصصين في هذا المجال تفسير القرآن بالقرآن بأنّه: "مقابلة الآية بالآية وجعلها شاهداً لبعضها على الآخر؛ ليستدل على هذه بهذه لمعرفة مراد الله تعالى من القرآن الكريم".[5]

المبحث الثاني أنواعه:

يعد تفسير القرآن بالقرآن منهجًا كلّيا تندرج تحته مصاديق وطرق فرعية متعددة يستفيد منها المفسرون في التفسير **وهي:**

1- الجمع بين العام والخاص:

جاءت كثير من إطلاقات الآيات المباركة في القرآن الكريم على وجهٍ عمومي في مقام خاص لأفراد كثيرين، وفي مقام آخر خصصت هذه الآيات في آيات أخرى، لتفيد معنى خاص، فتعيّن حمل العام على الخاص، فتكون حاكمة عليها ومفسّرة لها. فمثلاً في قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[6] آية عامّة تفيد جواز نكاح كلّ النساء، لكن في آية أخرى نجد أنَّ الله تعالى قد خصّص من يجوز نكاحهن فقال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.[7] وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ..﴾.[8]

فتوظيف خصوصية بعض الآيات الكريمة لتخصيص عموم بعضها الآخر، يفيد في بيان المراد الإلهي، وهذا ما كان الحائري يقوم به في بيان الآيات المباركة[9]، وتخصيص اطلاقاتها في إيراد آيات الأحكام أسوة ببقية المفسّرين، تفتيشاً عن المراد الإلهي والاستنباط الفقهي في خصوص أحكام الآيات وبيان حقيقة بعض الأحكام الشرعية التي تخصّ المكلّف.

وكذا في آية أخرى من سورة المائدة حيث ورد حكم كلّي في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[10]، وفيها حكم في جميع ما ورد عليه لفظ الميتة، ثمّ خصّه الله بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم﴾[11]، أي: وصيد ما عَلّمتم أو شرطية وجوابها: ﴿فَكُلُوا﴾، فأباح الله عزّ وجلّ الّذي يموت في فم الجارح.[12]

2- حمل المتشابهات على المحكمات:

قسّم الله تعالى آيات القرآن الى آيات محكمة وأخرى متشابهة، والآيات المحكمة تعد الأساس والمرجع للآيات القرآنية، فلابدّ حينئذ من إرجاع ما اشتبه من الآيات إليها، حتّى يبين معناها ويتضح، أو يتعيّن أحد وجوهها: كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[13]، التي ظاهرها التجسيم، فلابدّ حينئذ من إرجاعها الى قوله المحكم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[14]، واستدلّ به النسفي قائلًا: «الاستواء بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأوّل على الله تعالى بدليل المحكم في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾".[15]

فما ورد من ظاهر الآية هو التجسيم الذي يتنافى مع الذات المقدسة، فبمنظور الآية المباركة نفي أن يشبهه شيء، فقد أورد الحائريّ[16] في ذلك نقلًا عن مصباح المتهجد قول أمير المؤمنين (عليه السلام): "ليس كمثله شيء، إذا كان الشيء من مشيئته فكان لا يشبهه مكونه".[17]

ففي ضوء هذه الآيات وغيرها تتضح المعاني، وتُرفع الشبهات بالمحكمات، فعندما نقارن الآيات المذكورة مع الآيات المحكمة سوف يتبين أنّ المراد باليد هنا ليست اليد الجسمانية بل كناية عن القدرة الإلهية المستطيلة بذاتها، فتعالى الله تعالى عن الجسمانية منزّهاً عن حدود المادة.

3- تعيين مصداق الآية بواسطة الآيات الأخرى:

كما في سورة الحمد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فبواسطة منطوق الآية الثانية تعيّن مضمون الأولى[18]، فهذه الصّورة وغيرها من صور التفسير لا تكاد تذكر في كلّ تفسير، منها ما نحن في صدد ذكره من خلاصة البيان.

4- الجمع بين الآيات المطلقة والمقيّدة (تقييد المطلق):

نزلت بعض الآيات المباركة بصورة مطلقة دون قيد، وذُكرت بعض الآيات الأخرى مقيّدة، فخدمت بقيودها إطلاق آيات أخرى، بحيث وقعت نتيجتها في بيان وتفسير الآيات المطلقة، فمثلاً ذُكرت الصّلاة في بعض الآيات مطلقة: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾[19]، في حين قيد هذا الإطلاق في أزمنة خاصة في آيات أُخَرْ، كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾[20]، وأورد هذا البيان العلّامة الحلّيّ في المختلف: مستفيداً من إطلاق الآية الأولى على وجوب الصلاة، ومن الثاني بتخصيص الصّلاة اليومية، للإجماع.[21]

وكقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[22]، فخصّصه بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[23]، وأورد هذا التخصيص السيوطي في المقدمة.[24]

5- توضيح المجمل بواسطة المبيّن:

أشار القرآن الكريم الى مسألة أكل لحوم الحيوانات بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[25]، فورد التحريم على نحو الإجمال، إذ لم تبيّن الآية اللّحوم المحرّمة، لكن في آية أخرى فصّل القرآن اللّحوم، وأورد المحرّم منها في قوله تعالى: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ..﴾[26]، وأورد هذا التفصيل المتقدّم ابن عربي في الأحكام.[27]

6- تعيين المبهم: والمبهم هو: ما لم يُسَمَّ في القرآن من الأسماء والأعداد والأزمنة والأمكنة.

مثال ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[28]

فكانت هويّة المرأة هنا مبهمةً، فصرّح بها الله سبحانه في آيات أخرى، كقوله سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[29][30].

7- التوظيف البياني لسياق الآيات:

السياق: هو عبارة عن ألفاظ أو عبارات تفيد أمراً، وذلك بالاقتران مع كلمات وجمل أخرى، وعلى وفق الأصول العقلائيّة المعتمدة التي تحدد مضمون السياق بالاعتماد على اتصال الكلام وارتباطه، وبذلك تتحقق قرائن لفظية على فهم مراد الأفراد.

كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[31] حيث أن ظاهرها الجهة والمكان وتعالى الله عن ذلك، وفي بيان ذلك قال الحائري: " ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: يخافونه تعالى، وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[32]"[33].

فوقعت النتيجة بأنّ الفوقية تعني القهرية بدليل الآية المتقدمة من سورة الأنعام، فالفوقية بظاهر الحال تعني قيود المادة وحدود الجهة، لذا فإنّ توظيف السياق في المقام ساعد على تنقيح الفكرة وتهذيب وتشذيب المعتقد، وكأن الآيات القرآنية المباركة تلزمنا بمراجعة وتوظيف السياقات لجلاء ما كان مبهماً من الآيات الأخرى.

8- توظيف تكرار الآيات المتشابهة مضموناً:

إن من مزيات القران الكريم باعتباراته الكثيرة منها الهداية والتربية وتكرار المضامين بلغة تناسب الموضوع والحال، باعتباره منهجاً تربوياً ومدرسة توعوية لا على شاكلة تصنيف الكتب، لذا فقد يطرح الموضوع الواحد في عدّة سور، وتتناول في كلّ سورة جانباً من الجوانب بصورة قد تتشابه فيها الموضوعات بعضها مع بعض، ولذلك يقع على عاتق كلّ مفسّر أن يلتفت الى الموضوعات المتشابهة في التفسير وأن يضع الآيات بعضها مع بعضها حتّى يتّضح معناها.

ومثال ذلك ما أورده الحائري في الخلاصة: في تفسير قوله تعالى: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾[34]، قطعوه واتّخذوه منازل، لقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بِيُوتًا﴾.[35]

فتكرار المناسبة القرآنية بشاهد آخر ساعد على توضيح المبهم من الآية الكريمة، وهذا التوظيف وغيره دليلٌ جوهريّ على أهمّية تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثالث: أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن الإمامية:

أ- الشيخ الطوسي وتفسيره (التبيان):

تضمّن تفسير (التبيان) نماذج تفسيرية جمّة في موارد ومواطن كثيرة التي ارتكز في تبيانها وتفسيرها على أسس المنهج الأثري في تفسير القرآن بالقرآن، في حلقة من سلسلة ما يتبنّاه من طريقة المسلك الأثري في التفسير، الّذي يعدّ تفسير القرآن بالقرآن أحد أهم ركائزه كان الشيخ الأعظم لم يهمل اتجاهات التفسير المنقول والمعقول فضلاً عن الاتجاه اللغوي.

فكانت تلك البادرة التفسيرية جريئة في حدّ ذاتها في خطوة توصف بالقدم في الحركة الشيعية الإمامية، لا سيما أنّ من يقف على قواعدها مؤسس الحوزة العلمية بتاريخها المستطيل.

فهذه الطريقة المثلى على ما وقف عليه المفسرون غير مسبوقة، بل كانت بكرًا في الشارع الشيعي، حيث كانت تمثل فتيا الانتهاج به لكلّ من تكلّف التأويل والتدبّر، وهذا ما اعتبره الكثيرون أوّل الطريق في تفسير القرآن الكريم، بل واعتبره العلماء اللبنة الأساس التي ينبغي للمفسّر أن يرتكز عليها وينتهجها عند كلّ محاولة تفسيرية لكتاب الله عزّ وجلّ، وبذلك قالوا: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.[36]

شواهد التفسير القرآن بالقرآن في تفسير التبيان:

إن الوقوف على كثيرٍ من الشواهد يقتضي جهداً جهيد في تصنيف مختص، خصوصاً وأن الشيخ كان من المؤسسين القدامى لهذا المنهج المعتمد في تفسيره، وسنقف في المقام على شاهدٍ يعكس صورة مختزلة عن المنهج التفسيري في مصنّف التبيان:

فذكر الشيخ وجوه الإنذار الإلهي في مقام تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:[37]

"وأمّا الإنذار فهو إعلام وتخويف، وكلّ منذر معلم، وليس كلّ معلم منذراً، وقد سمّى الله نفسه بذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[38]، لأنّ الإعلام يجوز وصفه به والتخويف أيضاً كذلك في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[39]، فإذا جاز وصفه بالمعنيين جاز وصفه بلفظ يشتمل عليهما..".[40]

أ- العلّامة الطبرسيّ وتفسيره (مجمع البيان):

تعرّض كثير من الناقدين والباحثين للمنهج التفسيري الذي ينتهجه الشيخ أبو علي الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان)، فلا نريد الإسهاب والتطويل في دراسة منهجه إلّا ما نؤمّه من منهجيته في التلفيق بين مضامين الآيات، واستعماله مراد وفحوى الآيات المباركة في بيان ما كان مبهماً، وتوضيح ما كان مشكلاً، ويعدّ الشيخ أبو علي بعد الشيخ الطوسي في طليعة من أحسن توظيف هذا المنهج، في بيان القرآن الكريم على طرق وأنواع هذا المنهج، من حمل الخاص على العام، وتقييد المطلق، وتعيين المبهم، وغيرها من أساليب هذا المنهج، فيمكن أن نقول إن تفسيره المجمع هو بوابة الفتوى لشرعية هذا المنهج، حتّى استنسخ تلك التجربة كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، فكان حاصلها عظيماً في ترجمة المبهم من الآيات القرآنية المباركة.

وعليه فإن شواهد هذا المنهج في كتابه المجمع كثيرة لا يسعنا إيرادها إلّا على نحو الاستشهاد المجمل.

فقال في بيان معنى (اهدنا) في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[41]، عدد من الوجوه مشفوعة بالأدلة القرآنية منها:

أولّها: أنّها جاءت بمعنى الثبات على دين الحق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.[42]

وثانيها: إنَّ الهداية هي الثواب لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[43]، فصار معناه اهدنا إلى طريق الجنة ثوابًا لنا، ويؤيّده قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.[44]

ب- العلّامة الطباطبائي وتفسيره (الميزان):

قال العلامة الطباطبائي في مقدّمة تفسيره الميزان بعد إيراد بعض المطالب حول تفسير القرآن:

"... وذلك على أحد وجهين: أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك، مسألة المسائل التي تتعرض لها الآية حتى نقف على الحق في المسألة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير أن القرآن لا يرتضيها كما عرفت.

وثانيهما: أن نفسر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيراتها، بالتدبر المندوب إليه في القرآن نفسه، ونشخص المصاديق وتتعرف إليها بالخواص التي تعطيها الآيات".[45]

فبرزت اهتمامات العلماء الإمامية من المتأخرين في هذا المنهج التفسيري، وكان السيّد الطباطبائي في جملة من انتهج هذا المنهج من المتأخرين، حيث فرّع عليه وأسّس قواعده التفسيرية وفق القراءات المنهجية الحديثة، متكّئاً على ظواهر المفاهيم القرآنية ومنهج التلفيق بينها، حتّى غدا هذا المنهج من ركائز المناهج التفسيرية لكلّ متدبّر ومفسّر وقف على بيان الآيات المباركة.

فقد استعمل السيّد في كثيرٍ من تأويلاته هذا المنهج، ووقف عليه في كلّ موطنٍ وموقف، لطريقته المثلى في اقتناص الآيات وإحضارها في الموقف المناسب عند كلّ بيانٍ وتأويل،

وسنقف على تطبيقٍ واحد كشاهدٍ على إسقاطات منهجه التفسيري في الميزان:

قال السيّد الطباطبائي في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[46]، المراد بأهله: أهل بيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[47] [48].

فشواهد هذا المنهج في تفسير الميزان كثيرة لا تُحصى، خصوصاً وأن السيد اعتمد هذا المسلك اعتماداً كلّياً، إيماناً به كضرورة منهجية يتعيّن على كلّ شاربٍ للتأويل أن ينهل منها، ومن هناك اعتمد هذا المنهج ركناً ركيناً في أسس التفسير البياني.

المبحث الرابع الشواهد القرآنية الواردة في خلاصة البيان:

قد تقدّمَ البحث والتمهيد في معرفة منهجية التفسير القرآن بالقرآن واستعرضنا جملة من حسنات هذا المنهج، وإيراد من قال به كمذهبٍ صحيح قويم في تفسير القرآن، وآن لنا أن نستعرض اسقاطات التجربة التي انتهجها الحائري في تفسير الخلاصة من خلال عرض جملة من الشواهد وعيّنات تترجم محاكاة الحائري لهذا المنهج واعتماده كأصلٍ من أصول المنهج التفسيري.

الشاهد: (سورة فاتحة الكتاب):

قال الحائري[49] في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[50]: هم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.[51]

فاسقط الحائري هنا معنى الغضب الإلهي وحكمه على اليهود محتجاً بآية المائدة التي بيّنت عواقب السخط من الذات المقدسة، وماهية اللّعن المؤبّد.، وافقه على هذا الرأي الطبرسي في المجمع[52]، وقد صرّح بأنّ هذا البيان قد أجمع عليه جميع المفسّرين، من العام والخاص مستدلاً بما استدلّ به الحائري من آية المائدة، وصاحب هذا الاحتجاج الأول هو الشيخ الطوسي والذي ذكره في تفسير التبيان.[53]

وأمّا العيّاشي و القمّي وجملة من أصحاب المأثور[54]، فقد ذهبوا إلى أنّ المغضوب عليهم: النصاب، والضالين من لا يعرفون الإمام، محتجين برواية ابن أبي عمير، فكان هذا الرأي مذهباً آخر في المنظور العقائدي للآية المباركة.

الشاهد: (سورة الصافات):

قال الحائري[55] في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾[56]: هو الماء الحار الشديد الحرارة، يسقى منه أهل النَّار أو يصب على أبدانهم، قيل: الحميم خارج عن الجحيم، لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[57]"[58].

فبدليلية الآية المباركة من سورة الصافات وقف الحائري على أنَّ هناك بوناً واسعاً ما بين الحميم والجحيم، حيث أفادت الآية الآنفة للذكر أنّ المعذّبون المجرمون يطوفون ما بين الجحيم والحميم، وفي المقام كناية عن استمرارية العذاب وتنوع سطوة الله عزّ وجلّ، حيث أنّهم كلّما أعيتهم نيران جهنم يظمئوا فيغاثوا بماء كالمهل يشوي البطون.

ومع التتبع في مظانّه وقفنا على أنّ هناك جملة من المفسرين من المتقدمين قد وافقوا هذا الرأي وقالوا به، منهم ابن الجوزي في التذكرة[59]، والقرطبي في الجامع[60].

وأمّا من قال به من المتأخرين فهو السيّد الطباطبائي في الميزان[61]، وقبله الشيخ محمّد السبزواري في كتابه (الجديد في تفسير القرآن المجيد)، قائلاً: "وظاهر الآية يدلّ على أنّ الحميم خارج عن الجحيم وأنهم يوردونهم إليه أوّلا ثم يردّون إليها. ويؤيّد هذا الظهور قوله سبحانه: ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ فهم يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يردّون إلى الجحيم.[62]

الشاهد: (سورة النمل):

قال الحائري[63] في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ فِي النَّارِ﴾[64]: هو من في مكان النَّار، وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.[65]

إنّ من حسنات هذا المنهج أنّه يعرّف الدائرة المكانية ويشخصها بفضل التلفيق بين آياته حتى يتبين للطالب الحقيقة المكانية وأبعادها ومجازاتها، ولا خفى على أحدٍ أن هذا التلفيق يقتضي مؤونة ودراية ومكنة وإلمامً، فكان الحائري ممّن وفقّوا لهذا المدرك العظيم، و في المقام شواهد كثيرة على تحييز الرقعة الجغرافية لآية بفضل تصريح آية أخرى كما في قوله تعالى المتقدّم، حيث استدل على أنّ مكان النار هو في عين ذاته البقعة المباركة، وكأنَّ الآيات المباركة جاءت بتشبيه النورانية وقرب صورتها من أذهان العرب بصورة النار وشدة توهجها.

قد ورد هذا الاستدلال والبيان في كتب المفسرين، منهم البيضاوي في تفسيره، ومن الإمامية: الملا فتح الله الكاشاني[66]، وكذا الفيض الكاشاني[67] وغيرهم من العلماء المتأخرين[68]، الذين قالوا بوقوع آية البقعة المباركة في بيان مكان النار. وهذا يشير إلى ان استدلالات الحائري لم تكن ناشزة عن رأي المشهور بل كان في كثير من الأحيان متعبّداً بالشهرة، حيث لم يكن جريئاً في طرح ما هو مغاير وجديد عن الساحة التفسيرية، على ما استقرأنا والله العالم.

الشاهد: (سورة النمل):

قال الحائري[69] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾[70]: أقسم بوقت ارتفاع الشمس أو بالنهار، وأيَّد هذا بقوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾[71] في مقابلة ﴿بَيَاتًا﴾.[72]

فلولا المعنى البياني الذي قدّمته الآية المباركة في بيان وقت الضحى وزمان ارتفاع النهار، ما وصل إلينا حقيقة المراد الإلهي وإن كانت المباحث اللغوية تفيد بغرضها في حقيقة الأزمنة واطلاقاتها عند العرب، ولكن للقرآن الكريم لغة عصية الإدراك والفهم، فلذا كان أفضل مورد في بيان حقيقة الإطلاقات القرآنية هو الإطلاقات القرآنية، وهنا في المقام قد استعمل الحائري آية الأعراف في بيان زمان وقوع العذاب وهو الضحى بعكس زمان البيات وهو الليل في فهم حقيقة وقت القسم الإلهي وإدراكه.

وقد وافق الحائري في هذا البيان ما وقف عليه الزمخشري في تفسيره، حيث ذكر مقابلة الضحى لزمان البيات، وورَدَ هذا التلفيق على نحو الإشارة في الكشاف، وتبعه على هذا الرأي البيضاوي[73]، وتفسير أبي السعود[74]، وصاحب زبدة التفاسير[75]، والمشهدي في كنز الدقائق[76]، وغيرهم من المفسرين الذين أجمعوا على هذا الإيراد بلسان واحد لا زيادة عليه، مما جعلنا نكتفي بالاشارة دون السرد لمطابقة اللفظ الكل.

الهوامش:

(1) من الخاصة: العلّامة الطبرسي في المجمع: 478/1، والسيّد الطباطبائي في الميزان: 14/1-15، والدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون: 41/4. (ينظر: التبيان في أقسام القرآن: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751هـ) تح: محمد حامد الفقيه: دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)،18.

(2) ينظر : دروس في المناهج والإتجاهات التفسيرية للقرآن, محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب قاسم البيضاني، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر ط4، د ت, 43.

(3) تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية: أحمد بن محمد البريدي، منشورات مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية؛ (د ط) (د ت). 8.

(4) هذا على رأي الاستاذ عميد الزنجاني، حيث أن الباء باء الاستعانة: مباني روشهای تفسير: 288.

(5) ينظر: المنهج الأثري: 65.

(6) النساء: 3.

(7) النساء:22.

(8) النساء: 23.

(9) ينظر: خلاصة البيان: 112/1-117.

(10) المائدة: 3.

(11) المائدة: 4.

(12) ينظر: خلاصة البيان: 141/1-142. ونصّ على ذاك في: البرهان في علوم القرآن: الزركشي (ت 794هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1- 1957م.241/2.

(13) الفتح: 10.

(14) الشورى: 11.

(15) مدارك التنزيل: تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات النسفي (ت: 537 هـ)، حققه وأخرج : يوسف علي بديوي، 1419هـ -، : محي الدين ديب، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1، 1998م. 50/3.

(16) خلاصة البيان: 308/2.

(17) مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي، (ت: 460هـ)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت لبنان، ط1, 1419 هـ-1991م ,752,.

(18) ينظر: تفسير السمرقندي: بحر العلوم: أبو الليث السمرقندي (ت:383هـ)، تح د. محمود مطرجى، دار الفكر، بيروت (د ط)، د. ت 18/1.

(19) البقرة: 43.

(20) ينظر: تفسير السمرقندي: 18/1.

(21) الإسراء: 78.

(22) العصر: 2.

(23) العصر: 3.

(24) ينظر: مقدمة التفسير:2/4.

(25) ينظر: تفسير السمرقندي: 18/1.

(26) ينظر: تفسير السمرقندي: 18/1.

(27) ينظر: أحكام القرآن: الزركشي (ت 794هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1- 1957م, 16/2.

(28) الأنبياء: 91.

(29) التحريم: 12.

(30) ينظر: تفسير السمرقندي: 440/2.

(31) النحل: 48.

(32) الأنعام: 18.

(33) خلاصة البيان: 305/1.

(34) الفجر: 9.

(35) الشعراء: 149.

(36) الاتقان: 175/2.

(37) البقرة: 6.

(38) النبأ: 40.

(39) الزمر: 16.

(40) تفسير التبيان: 62/1.

(41) الفاتحة: 6.

(42) محمّد: 17.

(43) يونس: 9.

(44) الأعراف: 43.

(45) تفسير الميزان: السيد الطباطبائي (ت: 1402هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، د.ط، دت,11/1.

(46) النمل: 57.

(47) الذاريات: 36.

(48) تفسير الميزان: 376/15.

(49) ينظر: خلاصة البيان: 49/1.

(50) فاتحة الكتاب: 7.

(51) المائدة: 60.

(52) مجمع البيان: 70/1.

(53) التبيان في تفسير القرآن: 45/1.

(54) ينظر: تفسير العيّاشي: محمد بن مسعود العياشي (ت:320)، تح: السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران،(د ط) د.ت 24/1، تفسير القمّي: علي بن إبراهيم (ت 329 هـ)، تح: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر – قم – إيران، ط3، 1404هـ. 29/1، تفسير الإمام العسكري (ع): المنسوب إلى الإمام العسكري (ع): (ت260هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (ع)، ط1، 1409هـ. 50.

(55) ينظر : خلاصة البيان: 250/2.

(56) الصافات: 67.

(57) الرحمن: 43.

(58) ينظر: مجمع البيان: 311/8.

(59) ينظر: تذكرة الأريب في تفسير الغريب:ابن الجوزي؛ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، تح: طارق فتحي السيد،ط1،: 1425 هـ- 2000م،321

(60) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي):، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت671)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، (د ت).88/15.

(61) ينظر: تفسير الميزان: سيد محمد حسين الطباطبائي (ت: 1402هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، د.ط، دت.141/17.

(62) الجديد في تفسير القرآن المجيد: 66/6.

(63) ينظر: خلاصة البيان: 146/2.

(64) النمل: 7.

(65) القصص: 30.

(66) ينظر: زبدة التفاسير بهامش مصحف المدينة النبوية: محمد سليمان عبد الله الاشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2 2019م. 74/5.

(67) ينظر: التفسير الصافي: 59/4.

(68) ينظر: عقود المرجان في تفسير القرآن، السيّد نعمة الله الجزائري ت(1112 هـ) المحقق: مؤسسة شمس الضحى الثقافية المترجم: الناشر: إحياء الكتب الإسلامية، ط1، اميران (د ت).

542/3، تفسير كنز الدقائق: المشهدي محمد بن رضا بن جمال الدين (ت:1125 هـ)، تح: مجتبى،(د ط)، 1407هـ. 534/9.

(69) ينظر: خلاصة البيان: 235/3.

(70) الضحى: 1.

(71) الأعراف: 98.

(72) الأعراف: 97.

(73) ينظر: تفسير البيضاوي: 5 نوار التنزيل وأسرار التأويل) عبد الله بن عمر *البيضاوي*، (ت: 682هـ)، مطبعة دار الفكر، بيروت، (د ط) د.ت./501.

(74) ينظر: تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت982هـ) دح، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د ط) (د ت). 169/9.

(75) ينظر: زبدة التفاسير بهامش مصحف المدينة النبوية: محمد سليمان عبد الله الاشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2 2019م 452/7.

(3176) ينظر: كنز الدقائق: : المشهدي محمد بن رضا بن جمال الدين (ت:1125 هـ)، تحقيق: مجتبى،(د ط)، 1407هـ.6/16.

المصادر والمراجع:

1- أحكام القرآن: الزركشي (ت 794هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1- 1957م.

2- التبيان في أقسام القرآن: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751هـ) تح: محمد حامد الفقيه: دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د ط)،(د ت).

3- تذكرة الأريب في تفسير الغريب: ابن الجوزي؛ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، تح: طارق فتحي السيد، ط1،: 1425 هـ- 2000م.

4-تفسير الإمام العسكري (ع): المنسوب إلى الإمام العسكري (ع): (ت260هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (ع)، ط1، 1409هـ

5- تفسير السمرقندي: بحر العلوم: أبو الليث السمرقندي (ت:383هـ)، تح د. محمود مطرجى، دار الفكر، بيروت (د ط)، د، ت.

6-تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت982هـ) دح، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د ط) (د ت).

7- تفسير البيضاوي: نوار التنزيل وأسرار التأويل) عبد الله بن عمر البيضاوي، (ت: 682هـ)، مطبعة دار الفكر، بيروت، (د ط) د.ت.

8-تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية: أحمد بن محمد البريدي، منشورات مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية؛ (د ط) (د ت).

9-تفسير العياشي: بن مسعود العياشي (ت:320)، تح: السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، (د ط) د.ت 24/1، تفسير القمّي: علي بن إبراهيم (ت 329 هـ)، تح: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر – قم – إيران، ط3، 1404هـ.

10-تفسير الميزان: سيد محمد حسين الطباطبائي (ت: 1402هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، د.ط، دت.

11-الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي):، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت671)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، (د ت).
12- دروس في المناهج والإتجاهات التفسيرية للقرآن: محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب قاسم البيضاني، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر ط4، د ت
13-زبدة التفاسير بهامش مصحف المدينة النبوية: محمد سليمان عبد الله الاشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2 ،2019م.
14-عقود المرجان في تفسير القرآن، السيّد نعمة الله الجزائري ت(1112 هـ) المحقق: مؤسسة شمس الضحى الثقافية المترجم: الناشر: إحياء الكتب الإسلامية، ط1، اميران (د ت).
15-كنز الدقائق: المشهدي محمد بن رضا بن جمال الدين (ت:1125 هـ)، تحقيق: مجتبى، (د ط)، 1407هـ.
16- مدارك التنزيل: تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات النسفي (ت: 537 هـ)، حققه وأخرج : يوسف علي بديوي، 1419هـ - محي الدين ديب، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1، 1998م
17- مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي، (ت: 460هـ)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت لبنان،1419هـ.